العرب
الجمعة 2020/04/17
السنة 42 العدد 11680

فقه ما بعد كورونا.. تنازلات ظرفية لتثبيت نفوذ رجال الدين

توسيع مؤسسة الفتوى لتشمل أطباء الاختصاص وعلماء الاجتماع والنفس

ما فرضه انتشار فايروس كورونا في العالم، لم يقتصر على المسائل العلمية والاقتصادية والاجتماعية، بل طالت الأسئلة المترتبة على الوباء المسائل الدينية، ليصوّب الاهتمام نحو دور الفقه في المشاغل المعاصرة، وهو دور لا يفترض أن يظل أسير التصورات التاريخية، بل هو أمام حتمية مواكبة ما يستجد في العالم وفتح المجال أمام تخصصات علمية وطبية.

عقول عاجزة عن مواكبة التحديات الراهنة

مختار الدبابي
كاتب وصحافي تونسي

يجري الحديث عن تغيرات واسعة في العالم ما بعد كورونا سواء ما تعلق بالبحوث الطبية أو استثمار الدول في تطوير البنية الصحية، والسعي لتقليص الفجوة بين الفئات الاجتماعية، أو التأسيس لتضامن دولي أكثر متانة.

في المقابل، يجري الحديث، على استحياء، عن فقه إسلامي بروح جديدة يكون قادرا على الاستجابة لتطورات الواقع، لكن هذا الحديث يتم في دوائر ضيقة وفي صيغة تشبه الترف الفكري أكثر منها قراءة للنتائج التي خلفتها أزمة كورونا على صورة الفقهاء ورجال الدين الذين ظهروا في موقف ضعيف واستجابوا رغما عنهم لضغط الأطباء والسياسيين ولحملات نشطاء مواقع التواصل الاجتماعي، وما قدموه ليس سوى تنازلات ظرفية في قالب مناورة لتثبيت نفوذهم وتحسين صورتهم.

> **الفتوى لا يمكن أن تكون مرتهنة لرجل الدين الذي يغرق في الشروح والتفاسير، وهو مغيّب عن الواقع وتعقيداته**

وبشر نورالدين الخادمي، وزير الشؤون الدينية التونسية في عهد الترويكا، ورئيس لجنة الفتوى في "اتحاد علماء المسلمين"، بأن "الحراك الإفتائي في نازلة كورونا 'سيؤسس' لطور جديد في الإفتاء"، لكن المبادرة التي عرضها طغى عليها استعراض المصطلحات والتجريد الذهني الفقهي أكثر من أن تقدم مداخل واضحة لاجتهاد يغلب "إكراهات الواقع" كمصدر رئيسي للتشريع.

وكعادة رجال الدين، فإنهم يسعون إلى تغليف التنازلات بآليات فقهية جاهزة يتم سحبها من أدراج المكاتب ومن الكتب الصفراء لإظهار أنهم يمتلكون الأجوبة والقياسات الجاهزة مهما كان الواقع وتعقيداته، من ذلك الالتجاء إلى أحداث متنافرة في الأزمنة القديمة بشأن مواقف من الطاعون للركوب على قرار حكومات في العالم الإسلامي بإغلاق المساجد والصلوات الجماعية خوفا من العدوى، أو إظهار نوع من التفهم لمخاوف الناس بشأن دفن موتى كورونا وإجراءات التوقي.

لا تكمن المشكلة في غياب فقه الضرورات، أو ما يصفه الفقهاء بفقه النوازل (الطوارئ)، ولكن في غياب مبادرة الفقهاء ورجال الدين المباشرين للفتوى والمتحكمين في الخطاب الرسمي والشعبي لإظهار مواكبة الواقع والاستجابة السريعة لتحدياته.

وإذا كانت الفتوى في الأزمنة الإسلامية القديمة حكرا على الفقهاء الذين كانت عندهم ثقافة تأخذ من كل شيء بطرف، فإن الفتوى في وقتنا الراهن لا يمكن أن تكون مرتهنة لرجل الدين الذي يغرق في الشروح والتفاسير والقياس الفقهي، وهو مغيّب في الغالب عن الواقع وتعقيداته العلمية والاجتماعية، ولذلك فإن مؤسسة الفتوى تحتاج إلى أن تتوسع لتشمل أطباء من مختلف الاختصاصات وعلماء اجتماع وعلماء نفس وباحثين في الشأن الديني، حتى تكون أقرب إلى فقه منها إلى الاسترجاع وإسقاط أحكام مرتبطة بلحظة تاريخية، مرت عليها قرون، على واقع مختلف تماما.

وأبرز ظهور مفتي تونس عثمان بطيخ مساء الثلاثاء في التلفزيون الرسمي صورة دقيقة عن نوعية رجل الدين الكلاسيكي الذي يبحث عن قياساته ومراجعه في الماضي بالعودة إلى ابن رشد مثلا، كرد فعل على الانتقادات الموجهة له، رغم أن الرجل حاول خلال السنوات الأخيرة أن يظهر في ثوب المجتهد الذي يخرج عن "جلباب الإسلام السياسي".

ومصطلح رجل الدين هنا مقصود للالتقاء في الوظيفة بين المفتي أو الخطيب في الجوامع مع صورة رجل الدين المرسومة في الكنيسة والتي أدت إلى الثورات على الدين وتبني العلمانية، والمشترك بينهما احتكار الدين ومحاولة السيطرة على وعي الناس بأحكام جاهزة في مظهر الحريص على التكلم باسم الله.

ويعود ارتباك الفتوى عند رجال الدين إلى كونهم مغيّبين عن الواقع بسبب صورة أرستقراطية تعتقد أن الفقهاء يجب أن ينفصلوا عن العامة لكونهم أعلم منهم وأقرب إلى الدين، وأدت هذه الصورة بمرور الوقت إلى قطيعة بين الفقيه والواقع بشكل كامل، وهو ما يجعل الفتوى في أغلبها مسقطة على الواقع وتعمد للتغطية على غربتها وعزلتها إلى الغموض وسرد القياسات الفقهية واللغوية والأحداث التاريخية.

لو كان الفقيه مرتبطا بالواقع وملتصقا بالناس وحاجاتهم وعارفا بتطورات الواقع وتعقيداته لكان أول من حث على العزل الصحي هم الفقهاء والخطباء في المساجد، لكنهم كانوا آخر من التحق بالركب، وحاولوا في البداية التقليل من المخاطر والإيحاء بأن الالتزام بالوضوء والتضرع إلى الله كاف ليساعد الناس على الخروج من محنة الوباء، وقبلوا على مضض بإغلاق المساجد.

وبسرعة حاولوا الركوب على الإجراءات الصحية الصادرة عن الأطباء والسياسيين وإظهار أن الفقه يمتلك آليات قياس تسبق هؤلاء الأطباء والمسؤولين الحكوميين الذين أوقفوا الصلوات الجماعية في المساجد، وبدأوا بتفصيل أحكام فقه النوازل قياسا على قاعدة "الضرورات تبيح المحظورات" وأن حفظ الأبدان مقدم على حفظ الأديان.

وإذا كانت الأحكام الفقهية الخاصة بالنوازل أو الطوارئ بهذه السلاسة التي تسمح للفقيه بالاجتهاد بالسرعة الكافية، فلماذا لا تطبق هذه السلاسة في الأحكام العادية خصوصا ما تعلق بحفظ الناس ودعم العلم، وهي المسائل التي يظهر فيها الفقهاء تشددا كبيرا مثل قضية التبرع بالأعضاء لدى الموتى، والتي تلقى معارضة شديدة بسبب كسر ضابط حرمة الميت.

وقد حمل تحدي كورونا تأكيدا جديدا على أن الدوائر المعنية بالفقه، سواء كانت من مؤسسات الفتوى أو من أولئك الباحثين المستقلين، أو أولئك المتمترسين في مقابل مؤسسات الفتوى والمحسوبين على الإسلام السياسي، تعيش على الهامش، وأن عليها التخصص في مجالها التقليدي، أي فتاوى العبادات، وتترك القضايا الطارئة لأهل الاختصاص من أطباء وعلماء وباحثين كل في مجاله، بما في ذلك مجال الأحوال الشخصية الذي ترتهنه لفتاواها.

وقبل أيام من حلول شهر رمضان تصدى رجال الدين في بلدان عربية وإسلامية للفتوى بشأن ضرورة الصيام من عدمه، في وقت كان عليهم أن ينتظروا قرارا من الأطباء يظهر حقيقة تأثير الصيام، وهل أنه فعلا يقلل من مناعة الجسم في التصدي للفايروس أم لا.

وأصدرت مجموعة من علماء جامعة الزيتونة في تونس "بيانا شرعيا" استباقيا تؤكد فيه أن "ما أُشيعَ عن إضعاف الصّوم لمناعة الإنسان الصّحيح، ممّا يهدّد بالإصابة بفايروس كورونا، ليس سوى دعوة عارية عن الصحّة"، في تناقض واسع مع مخاوف حقيقية لدى الحكومات والأطباء.

ما ضر لو أن رجال الدين، الذين يمثلون واجهة دينية لتيار الإسلام السياسي في تونس، لجأوا إلى لجنة طبية متخصصة وطلبوا منها "فتوى صحية" يمكن الاستناد إلى رأيها قبل الخوض في مسألة حساسة بدل مصادرة الرأي، خاصة أن مفتي البلاد ذهب في الاتجاه المغاير بالاحتكام إلى رجال العلم والأطباء.

وقال عثمان بطيخ "لا يمكننا أخذ أي قرار دون العودة إلى تقارير أهل الاختصاص الأطباء ووزارة الصحّة"، مشددا على أنّ وزارة الصحة والأطباء هم الأكثر دراية بتأثير كورونا على صيام الناس من عدمه في شهر رمضان.

وكشف المفتي أن مجلس الأمن القومي سينعقد الخميس وسيناقش معطيات جديدة خاصّة بالفايروس و"على إثرها سيتمّ بناء قرار خاصّ بشهر رمضان".

ويقود جمهور الإسلام التقليدي، وأساسا أنصار حركة النهضة، حملة على بطيخ بسبب هذا التصريح الذي يقر بأن رجل الدين لا يمكنه أن يخوض في المسائل العلمية الدقيقة، وأن أي فتوى لا بد أن تستند إلى آراء أهل الاختصاص، فضلا عن أن القرار النهائي يعود إلى مؤسسة مجلس الأمن القومي، وهي تضم الفاعلين الحكوميين في مواجهة الوباء بما في ذلك اللجنة العلمية لوزارة الصحة، وبإشراف مباشر من رئيس الجمهورية قيس سعيد.

ويتهم ناشطون إسلاميون المفتي بأنه يطوع الفتوى لخدمة المؤسسة السياسية تماما كما كان في سنوات ما قبل الثورة، لكن الهدف من هذا هو العمل على حصر الفتاوى بيد رجال الدين ومدرسي الجامعات الدينية، بما يعنيه ذلك من تحولهم إلى سلطة دينية مستقلة وورقة سياسية قوية بيد الجماعات الإسلامية.

إن معارك الفتوى، التي ظهرت بالتزامن مع وباء كورونا، هي معارك نفوذ سياسي واعتباري للمؤسسة الدينية التي لا تريد أن تعترف بتراجع مجال تأثيرها في ظل تطورات علمية مذهلة يعجز رجل الدين عن مواكبتها فما بالك بفهمها والإفتاء بالاعتماد عليها.

هل ينتهي عصر الإسلام المسيّس.. مقاربة بين جائحتين

ما هو واقع حال الإسلام السياسي أثناء عربدة كورونا، وانفراد هذا العدو غير المرئي و"غير الملتحي" بتصدر نشرات الأخبار؟ كيف سيكون مستقبل هذا الفايروس الذي يستهدف العقول الشابة قبل أجهزة التنفس الضعيفة، وتباينت في أساليب التصدي إليه طرق المعالجة واستراتيجيات "تقوية المناعة" في المجتمعات الإسلامية وغير الإسلامية؟

حكيم مرزوقي
كاتب تونسي

لا ينبغي أن ننسى أن الوباء قد يظل كامنا، ولا تظهر أعراضه إلا على حين غفلة، وبعد أن تتوهم الحكومات بأنها قد سيطرت عليه بشكل كامل. وللمزيد من هذه المقاربة التي تبدو صائبة، بين وباء مجهري وآخر بشري، فإن أحدث ما توصلت إليه البحوث، تثبت أن بلازما دم المتعافي من كورونا، تنفع في معالجة المصاب حديثا، أي أنّ التائبين من الجهاديين يمكن لهم أن يفيدوا من تورطوا حديثا في تبني الفكر الإرهابي الذي يضرب مدن العالم دون تمييز.

نعم إن اللقاحات مجدية، وكذلك طرق المعالجة والتوقي، لكنّ هناك أوبئة قد تطرد أوبئة أخرى دون عناء، وفق معطيات مخبرية ثابتة. وهو ما يمكن توقعه من قراءة فاحصة لمستقبل الإسلام السياسي بعد كورونا.

الأوبئة والحروب والكوارث تبدو في ظاهرها مهيّجة للوازع الديني باعتباره آلية دفاعية لدى الأفراد والجماعات في حالات الخوف والإحباط، لكنها في باطنها تُلجم النوازع الشريرة لدى البشر، وتضفي جوًا من التضامن قوامه فكرة مفادها أن الكل في مركب يغرق، ولا سبيل للنجاة إلا بالمزيد من التعاضد وتأجيل الخلافات، وذلك انطلاقا من مقولة حكيمة، وهي "أن نعيش معا مثل إخوة وأصدقاء أو نموت معا مثل حمقى وأغبياء".

ليس في هذا الشعار شيء من المثالية بل هو غاية في البراغماتية التي لا بد منها. أضف إلى ذلك، حقائق أثبتت العلوم الاجتماعية والنفسية صحتها في استقراء ظاهرة الإرهاب كوباء لا يفرّق بين دول غنية وأخرى فقيرة، أو أنظمة ديمقراطية وأخرى شمولية.

أليس كورونا شكلا من أبشع أشكال الإرهاب، وبصرف النظر عمن يستثمره في الحقول السياسية والاقتصادية والثقافية؟ وبعيدا عن نظرية المؤامرة، فإنّ استبعاد هذا النمط من الشرح والاستدلال، هو بحد ذاته مؤامرة خبيثة يوظفها السلفيون والجهاديون للقول إن كورونا ليس من صنع البشر، وإنما ابتلاء من عند الله.

وإذا خطر لسائل أن يجادل: إنه يصيب الإسلاميين أيضا؟ تأتيك الإجابة فورا "طيب.. ايت لي بإسلامي واحد أصابه هذا الفايروس". حتما لا يستطيع المرء أن يحاججهم، لأنه لا يمكن أن يبحث في الأقبية والجحور، وحتى المساجد المقفلة، عن إسلامي أصابه كورونا.

تكتفي بالإجابة ساخرا "المؤكد أن الفايروس لا يصيب فايروسا من فصيلته أو أشد فتكا"، لكن التململ من الحجر الصحي لدى كل الناس، ومهما كان انضباطهم هو أيضا، ذريعة يمكن الركوب عليها وتصويبها ضد مؤسسات الدولة وقراراتها الحريصة على السلامة العامة كواحدة من مهامها وأولوياتها.

كل شيء يمكن استثماره لدى قادة الجماعات الإسلامية في هذه الجائحة، وأوله هو "الحرمان من تأدية الفروض والشعائر الدينية كغلق المساجد وتعليق الصلوات الجماعية، وإيقاف العمرة وربما الحج إن استفحل الأمر".

هذه الإجراءات ذات الطابع اللوجستي، لا تبدو ظالمة إلا لدى جمهور الإسلاميين دون غيرهم من رعايا الديانات الأخرى، إذ لم نشهد أي تذمر في الأوساط المسيحية التي أحيت عيد الفصح في بيوتها دون مراسم وقداديس واحتفاليات، وكذلك الأمر بالنسبة للمعابد البوذية والهندوسية.

أن الإسلام السياسي سوف يفشل فشلا ذريعا في كل محاولات التجيير والتجييش، قصد تعبئة الناس وأدلجتهم باسم الوباء الجارف، وذلك لانعدام الحجة المقنعة أولا، ثم لبداية اضمحلال وتراجع الوازع الديني الذي كانوا يعولون عليه كقوة هجومية ضد الدولة المدنية.

هل ينتهي الإسلام المسيّس؟ هذا هو السؤال الجوهري في استقراء مشهد الإرهاب الديني ما بعد كورونا.

واضح أن كل محاولات التأليب من طرف الإسلاميين قد باءت بالفشل وارتدت على أصحابها أمام عدم تمكنهم من منابر صلاة الجمعة التي كانوا فيها يحرضون ويتوعدون. أضف إلى ذلك أن "الخوف من الموت" صار محفزا على انفضاض الناس من حولهم، بدل التعاطف والاستجابة لخطابهم التحريضي.

يبدو أن "الخوف من الموت" في حالات الصحو والسكينة، أكثر استثارة للغرائز الدينية، من وضعيات الرعب المتفشي بسبب وباء أعمى، لا يخاطب الناس من خلف المنابر، بل يتحداهم وهم يختفون خلف الأقنعة والكمامات والقفازات، ويقضّ مضاجعهم وهم لا يتكاتفون ويتراصون ويستوون صفا واحدا خلف إمام أو قبالة خطيب.

نذكر أن من بين الاعتراضات التي وُجّهت للمفتي التونسي عثمان بطيخ، أنه لم يستخدم آيات قرآنية في خطاباته التي تناولت التحذير من وباء كورونا. ومن الاستنتاجات السخيفة التي أطلقها الإسلاميون أن الشيخ التنويري غير مؤهل للإفتاء، لأنه لم يستخدم آيات قرآنية في كلمته، في حين أنه كان يصر على الحجج العلمية ويحث الناس على عدم رمي أنفسهم في التهلكة.

العلم يواجه الميتافيزيقا ويتغلب عليها، هذا ما أثبتته حالات التصدي لإرهاب كورونا، والتي أثبتت أن الأفرول الأبيض لدى الأطباء والممرضين والمسعفين، أنفع وأجدر، من العمائم الكاذبة والمنابر التعبوية التي لم تعد تساوي شيئا أمام المخابر التي تمتزج فيها معتقدات الباحثين، بل يقع تجاوزها في سبيل إيجاد حل لهذا الوباء.

الأمر يشبه في انتصاره للحياة، الحرب الأهلية اللبنانية التي يحيي الذين عاشوا مآسيها، ذكراها هذه الأيام من عام 1975، وعايشت شخصيا، سنواتها الأخيرة وارتداداتها على الساحة السورية.

كانت حرب اصطفافات فكرية واضحة، ومع كل قذيفة تنزل كان هناك كتاب يطلع. قذائف استثنت البنوك التي تمول الحرب، وحيدت الملاهي الليلية التي أعطتها نكهة "سوريالية".. كانت حربا فيها "أخلاقيات" تخضع لها بيروت الشرقية وبيروت الغربية وتتجاوز "نهر الكلب" (نهر الموت) كحد فاصل.

> **الإسلام السياسي سوف يفشل في كل محاولات التجيير والتجييش، قصد تعبئة الناس وأدلجتهم باسم الوباء**

ميثاق يُعلي الفنانة فيروز فوق الجميع، ويوقف إطلاق الرصاص في صباحات التسوق، وفي جنازات عابرة للطوائف كجنازة الكوميدي "شوشو".. كانت حربا تطهيرية بمتاريس طائفية وشعارات سياسية لكنها لم تكن حربا دينية.. كانت حربا "لا بد منها في بلد لا بد منه".

الأوبئة، مثل الحروب، تصنع اتفاقا ضمنيا لدى المتخاصمين، مفاده أن لا بد من تأجيل الخلافات إلى حين انتهاء الكارثة التي قد تعصف بالجميع.

التدين المبالغ فيه جاءت به تجارب مزلزلة للكيان الإنساني، وستخفف منه وتجعله معتدلا تجارب مماثلة في هز عدة قناعات وهمية ومزيفة. لن نقول رب ضارة نافعة، لكنها حالة شبهها الكثيرون بـ11 سبتمبر 2001، ولكن في مسار مختلف ربما يكون معكوسا.